International Refereed Journal of Language & Culture
Dicember 2023, Vol. (8), No. (2)
ISSN: 2180-0006

المجلة العلمية للغة والثقافة
ديسمبر 2023، المجلد (8)، العدد (2)

السردية الروائية في الرواية التاريخية عند جرجي زيدان: دراسة نقدية

Narrative in the Historical Novel According to Georgi Zidan A Critical Study

عبد الحليم سامي

محاضر بالجامعة الإسلامية العالمية، كلية اللغات والاتصال العالمي، ماليزيا

عبد الحليم بن صالح

محاضر بالجامعة الإسلامية العالمية، كلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والدراسات الإنسانية، ماليزيا

محمد خليل محمد الرماضين

محاضر بالجامعة الإسلامية العالمية، كلية اللغات والاتصال العالمي، ماليزيا

محمد حفيز بن محمد شريف

Assistant Lecturer in Arabic Language & Islamic Civilization, Department of Arabic & Islamic Civilization, University of Peradeniya, Sri Lanka
Lecturer In Arabic Language and Islamic Studies, Jamiah Rahmaniyyah, College for Islamic Studies, Akurana, Sri Lanka

الملخص

يسعى البحث إلى دراسة السردية الروائية في الرواية التاريخية عند جرجي زيدان، إذ تبرز أهمية البحث بتقديمه دراسة تحليلية نقدية تجمع بين السردية التاريخية والسردية الروائية للروايات التاريخية المتمثلة في روايات: صلاح الدين الأيوبي، وشجرة الدر، والحجاج بن يوسف لجرجي زيدان، وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي في وصف الخطابين التاريخي والروائي، والمنهج التحليلي في نقد عناصر السردية، كما استعرض البحث الخطاب التاريخي والخطاب الروائي بين الفنية والموضوعية، وقد خلص البحث من خلال نقد وتحليل العناصر السردية: في الوصف، والعرض المشهدي، والحوار، والتداعيات، والتعليقات، والرسائل، وحركة السردية إلى مجموعة من النتائج منها: أن جرجي زيدان يغوص في ثنايا التاريخ بحثاً عن المعطيات التاريخية الأقل شهرة، والأكثر جدلية لتأطير رؤيته السردية، وأيضاً، هيمنة أسلوب الراوي الداخلي على السردية عند جرجي زيدان: إما بتفسير أو تعليق أو شرح، مما أضعف من مرونة الرواية وحدّ من تفاعل المتلقي في قراءة نتائج الأحداث، إضافة إلى النتائج الأخرى المهمة في موضوع البحث.

الكلمات المفتاحية: السرديَّة، الروائية، الرواية، التاريخية، جرجي زيدان

Abstract

This research aims to investigate narrative discourse in historical novels by Georgi Zidan, emphasizing the significance of this study by providing a critical analytical examination that bridges historical narrative and fictional narrative in historical novels represented by Zidan's works: "Salah al-Din al-Ayyubi," "Shajarat al-Durr," and "Al-Hajjaj ibn Yusuf." The research adopts a descriptive approach in analyzing historical and narrative discourses, along with an analytical approach to critique narrative elements. Additionally, the research explores the interplay between historical and fictional discourse in terms of technique and objectivity. Through the critique and analysis of narrative elements such as description, scenic presentation, dialogue, repercussions, comments, messages, and narrative movement, the research yields several results, including Georgi Zidan's exploration of lesser-known and more controversial historical facts to frame his narrative vision. Furthermore, the research highlights the dominance of the internal narrator's style in Zidan's narrative, either through explanation, commentary, or elucidation. This practice diminishes the flexibility of the novel and restricts the reader's interaction with the events' outcomes. The research also unveils other important findings within the scope of its subject.

Keywords: Narrative, Fictional, Novel, Historical, Georgi Zidan

مقدمة:

الرواية التاريخية من السرديات الأدبية التي تستمد موضوعاتها من أحداث التاريخ، وتصوّر عصرًا من العصور الماضية بأسلوب شائق، فهي تسجيل لحياة الإنسان، وعواطفه، وانفعالاته في إطار تاريخي، وذلك إما بمحاكاة الحاضر للماضي، أو بتقديم الماضي للحاضر، بأسلوب خيالي تقوم على أساس مبدأ التاريخية.[1]

والرواية التاريخية "سرد قصصي يدور حول حوادث تاريخية وقعت بالفعل، فيه محاولة لإحياء فترة تاريخية، بأشخاص حقيقيين، أو خياليين، أو بهما معاً"،[2] فهي تستحضر ميلاد الأوضاع الجديدة، وتصور بداية ومساراً وقوة دافعة في مصير لم يتشكل بعد في المستقبل، والرواية التاريخية عمل يقوم على توترات داخلية في تجارب الشخصيات تمثيلاً لنوع من السلوك والشعور الإنساني بين الماضي والحاضر في ارتباطهما المتبادل بالحياة الاجتماعية والفردية، وهي تمثل بالضرورة تعقيداً وتنوعاً في الخبرة والتجربة،[3] فهي "تسجيل لحياة الإنسان، ولعواطفه، ولانفعالاته في إطار تاريخي".[4]

ظهرت الرواية التاريخية قديماً في القارة الأوروبية إثر الصراعات السياسية في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر على يد الأديب (وولتر سكوت) بروايته المشهورة (وافرلي)،[5] ثم ما لبثت حتى راجت ولقيت إقبالاً من الروائيين أمثال (فيكتور هيغو) بروايته (أحدب نوتردام 1831م)، ورواية (الحرب والسلام) في روسيا للروائي (تولستوي)، وفي إيطاليا (ألكسندرو مانزوني) في روايته (المخطوبين) 1923م، أما في ألمانيا فنجد (ألكسز) بروايته (فلادمور) 1824م،[6] وغيرها من الروايات التاريخية العالمية.

وقد أفضى انتشار الرواية التاريخية عالمياً إلى ظهورها في الأدب العربي عن طريق ترجمة الأديب سليم البستاني لمجموعة من الروايات التاريخية الأجنبية إلى العربية والتي تعدّ بمثابة أولى إرهاصات كتابة الرواية التاريخية في الأدب العربي.[7]

إن الغايات المبكرة في ظهور الرواية التاريخية العربية كانت لأجل التعليم، يقول جرجي زيدان "وأما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، وندمج فيها قصة غرامية، تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ"،[8] والمجال الأكاديمي من أكثر المجالات التي احتضنت الروايات التاريخية منهجاً تعليمياً، فقام بتدريسها، وفرضها على مؤسساته المختلفة، وجعلها ضمن مقرراته التي تستوجب الفشل أو النجاح.

وجرجي زيدان من أوائل من كتب في الرواية التاريخية العربية في سلسلة رواياته التي أسماها روايات تاريخ الإسلام، بل إن بعضهم يعده أول من كتب في الرواية التاريخية في الأدب العربي يقول عنه سهيل إدريس "إنه دون منازع خالق الرواية التاريخية عندنا"،[9] ويقول عنه طه حسين "هو الذي نقل إلى الأدب العربي مذهباً من مذاهب الأدب الأوروبي، هو القصص التاريخي".[10]

ظهرت أولى روايات جرجي زيدان التاريخية (المملوك الشارد) عام 1891م، ثم كتب تاريخ مصر الحديث عام 1889م في جزأين، وكتب تاريخ العالم القديم، وتاريخ إنجلترا، والنظام القبلي عند العرب القدامى، وفي سنة 1902م قدّم زيدان تراجم لمشاهير الشرق في القرن التاسع عشر بجزأين، ثم كتب تاريخ التمدن الإسلامي في اثنتين وعشرين رواية، وكانت ذلك بمثابة انطلاقة حقيقية لرواياته التاريخية، وقد حاز جرجي زيدان عناية النقاد ودور النشر التي ما زالت تعيد طباعة رواياته حتى عصرنا الحالي.

وقد أثّر اهتمام زيدان المتزايد بتعليم التاريخ على أسلوبه الفني، لذلك رأى بعض النقاد أن روايات جرجي زيدان تفتقر إلى اللمحات الفنية، وتغلب عليها الطابع التعليمي، يقول عمر الدسوقي حسن عن سلسلة زيدان التاريخية "هذه السلسلة الطويلة التي بلغت أكثر من عشرين قصة، مستمدة من التاريخ الإسلامي، مكتوبة كلها بأسلوب صحفي، خالية من التحليل النفسي، والنظريات الفلسفية، وما هي العبرة من إيراد تاريخ في قالب قصة لم تكتمل شروطها الفنية ولم يحافظ فيه على الحقائق"،[11] ويقول فؤاد دوارة: "إن زيدان أورد الأحداث التاريخية بصورة مخلّة، ولم يعن بتقديم صورة فنية متكاملة للشخصيات الرئيسة في تلك الحادثة، ولم يهتم بشرح خلفياتها السياسية والاجتماعية بالقدر الكافي، فضلاً عن إيراده معلومات مشكوك في صحتها دون أي تمحيص باعتبارها حقائق تاريخية ثابتة"،[12] ويقول أحمد الشرباصي عن روايات زيدان "إن هذه الروايات لا تليق بالمسلم قراءتها لأنها وضعت لتشويه التاريخ الإسلامي وتحريف حوادثه".[13]

رغم الانتقادات التي وُجهت إلى روايات زيدان التاريخية فقد لقيت رواياته استحسان العرب والغرب فترجمت إلى أكثر من لغة أجنبية كالفارسية، والتركية، والهندية، والأذرية، والفرنسية، والإنجليزية.

وفي سبيل تبيان القيمة الفنية في روايات زيدان التاريخية قام البحث بدراسة رواية: صلاح الدين الأيوبي، وشجرة الدر، والحجاج بن يوسف، من خلال تحليل عناصر السردية: كالوصف، والعرض المشهدي، والحوار، والتداعيات، والتعليقات، والرسائل، وحركة سردية الأحداث حيث التسارع والتباطؤ.

بين السرديتين التاريخية والروائية:

تكمن علاقة السردية الروائية بالسردية التاريخية في صورتين، الأولى مبنية على ظاهرة تلاحم التاريخ بالجنس الأدبي، حيث إن السرد التاريخي يأتي على ثلاثة قوالب وهي: الحوليات، والأخبار، والتاريخ،[14] فالحوليات تصوير للواقع التاريخي من غير سردية قصصية، كالسجلات المشتملة على الأحداث، وسنة حصولها بترتيب زمني؛ والأخبار هي تصوير الواقع التاريخي في قالب شبيه بالسردية القصصية، وقد تدور حول شخص أو مدينة أو معركة بترابط زمني بين أحداثها بدون نهاية، أما التاريخ فيصور الواقع التاريخي بقصة متكاملة ببداية ووسط ونهاية؛ فمع غياب القصة في الحوليات، والنهايات للأخبار ظهرت فراغات بين الأحداث مع انعدام تسلسلها، من أجل ذلك نحا بعض المؤرخين إلى سرد التاريخ في قالب قصة لإنشاء صورة كاملة عن الواقع التاريخي المتحدّث عنه، وبفضل هذا الاندماج بين التاريخ والقصة اتصل علم التاريخ بالجنس الأدبي، ويرى أرسطو أنه "بمجرد دخول الحدث التاريخي في إطار العمل الأدبي يتحول العنصر التاريخي إلى عنصر أدبي".[15]

والصورة الثانية لعلاقة الرواية بالتاريخ تتضح في مضمون الرواية التاريخية، فلا تعدّ الرواية تاريخيةً ما لم يتوفر فيها عنصران مترابطان هما الروائية والتاريخ،[16] وهذا الترابط يأتي على ثلاثة أشكال، إمّا بإعادة صياغة كتابة الواقع التاريخي دون المساس بحقيقته بأسلوب أدبي، أو باقتباس حادثة من واقع تاريخي ماضٍ ودمجها بخيال الروائي الحاضر، أو باختلاق واقعة تاريخية من خيال الروائي لا أساس لها، وفي كل الأحوال فإنه يجب على الروائي أن يلتزم بالخط التاريخي ونسقه العام، وبالخصائص والصورة العامة للبيئة التاريخية الاجتماعية والسياسية وملامحها وتقاليدها، وعدم الخروج عنها أو تزييفها،[17] "وحقيقة فإن التاريخ لا يستطيع أن يقطع كل علاقة مع السرد دون أن يفقد طبيعته، والعكس بالعكس".[18]

وتتميز السردية الروائية عن السرديَّة التاريخيَّة في أن مساحتها في تصوير الأحداث أرحب، فلا تحتاج إلى تبريرات لتصوراتها محافظة على استقلالها الذاتي، بعكس التاريخ الذي يلتزم بمحدودية التصوير وفقاً لما جاء في الواقع التاريخي، فيحق للرواية أن تخترع صورة خيالية تاريخية لا أساس لها مبنية على رؤيته السردية، بينما التاريخ ملتزم بوقائع

حقيقية لا يحق له الخروج عنها، ويحق للرواية نقد الحاضر باقتباسات من الماضي بينما التاريخ يتصف بالجمود ولا يتصل بالحاضر.

ويفترق الروائي عن المؤرخ في تمكّن الروائي من ملء الفراغات التاريخية بما يناسبه، وهو ما لا يتاح للمؤرخ القيام به، والمؤرخ في عرضه لميوله لا بد من التبرير والدفاع عنه بعكس الروائي الذي باستطاعته قول ما يريد دون إدانة.

وتجتمع الرواية بالتاريخ من خلال نظرية (هيجل) للتاريخ، حيث يرى بأن الوعي التاريخي يكون على ثلاث صيغ: الوعي الأصلي، والوعي التأملي، والوعي الفلسفي، وهي صيغ تنطبق على الروائيين، فمن الروائيين من يكتب الرواية من خلال الوعي الأصلي إذا أعاد صياغة التاريخ كما كان دون المساس بواقعه، ومنهم من يكتب من خلال الوعي التأملي إذا ما ربط الماضي بالحاضر، ومنهم من يكتب من خلال الوعي الفلسفي إذا ما كان التاريخ مختلق بخيالات الروائي،[19] ووجه الشبه ما بين الروائي والتاريخي أن كلاً منهما يهدف إلى رسم صورة تتألف من مجموعة عناصر، بحيث تنطوي على حكاية أو سرد للأحداث، ووصف للمواقف، وعرض للدوافع والبواعث، وتحليل لسلوك أو تفسير لأفعال الشخصيات، كما أن كلاً من المؤرخ والروائي يهدفان إلى ابتكار صورة كاملة من حيث التماسك والانسجام، إذ تبدو كل شخصية وكل موقف عبارة عن حلقة متصلة ببقية الشخصيات والمواقف.[20]

إن كلاً من التاريخ والرواية يمثلان خطاباً سردياً، فالسرد التاريخي "خطاب نفعي يسعى إلى الكشف عن القوانين المتحكمة في تتابع الوقائع"،[21] والسرد الروائي "خطاب جمالي تقدم فيه الوظيفة الإنشائية على الوظيفة المرجعية"،[22] وكلا السرديتين تنطلقان من التاريخ في البناء، إلاّ أنه يصح في السردية الروائية ما لا يصح في السردية التاريخية، فالروائي يستقطب المعطيات التاريخية ويضعها في إطار زماني ومكاني بغية إيصال القارئ إلى إدراك ما وقع في الماضي، وما ترتب عليه من نتائج.

واستدعاء الروائي للتاريخ على صورتين، إما في هيئة استدعاء الأحداث وابتعاث الشخصيات الحقيقية، وإما بإيجاد مناخ تاريخي بشخصيات وأحداث متخيلة، فالرواية تجمع بين المصداقية التاريخية، والالتزام الفني.

وما يميز السرد الروائي عن التاريخي أن الرواية تجمع بين الماضي والحاضر، والتاريخي إخبار عن الماضي، ومهما توغل الروائي في الماضي فإنه لا يكاد ينفك عن حاضره، فالروائي يناقش الماضي بما يعاصره من قضايا، فيستخلص النتائج من التاريخ ويقدم حلولاً للحاضر في علاقة جمعت بين الزمنين، ولا بد للرواية من بداية لقصتها ونهاية، ولا تهتم كثيراً بالتتابع الزمني للأحداث كما في التاريخ.

ومن حيث الشخصيات فإن الرواية التاريخية عادة ما تزاوج بين الشخصيات الحقيقية والشخصيات الخيالية،[23] فالشخصية الحقيقية صورة تعريفية بالزمن المتحدث عنه، وتقوم الشخصيات الخيالية بتشكيل صورة

متكاملة عن محيطه التفصيلي، من سلوكيات، ومظاهر، بينما السردية التاريخية تفتقر إلى الشخصيات الخيالية في تركيبها، فهي خطاب غير مكتمل، يملؤوه الفراغات.

ويتميز الخطاب الروائي بتعدد أصواته، فالروائي بتدرجه بين الراوي الداخلي والراوي الخارجي، وبواسطة شخصياته المتفاوتة السلوك، تتيح له طرح أفكار، وتفسير أحداث، يستنكر ويستنجب من خلالها بأسلوب غير مباشر، فتنجلي المعاني المبطنة تحت ظواهرها، أما الخطاب التاريخي فإنه أحادية التاريخ، متعلق بالوثائق الخارجية، غير مصرّح للمؤرخ بالتدخل فيه.

وتختلف غايات الروائي عن غايات المؤرخ في استدعائهما للتاريخ، فقد يستدعي الروائي التاريخ لمحاكاته أدبياً في اللغة، والبلاغة، والأسلوب، أو يستدعيه ليتلبسه هروباً من محاسبة القانون على أطروحاته الفكرية تجاه قضاياه المعاصرة، بينما يستدعي المؤرخ التاريخ راوياً له دون تدخل أيديولوجي، فلا يخضع بذلك لأيّ عملية رقابية.

والسرد الروائي لا يقدّس كثيراً الوثائق التاريخية بقدر اعتنائها بالصورة الفنية، فالواقع التاريخي للرواية مجرد إطار خارجي، يرسم الروائي بداخله أحداثه، ويشكّل شخصياته، ويبتكر صوره المتخيلة، وقد يُسقط بعضاً من الحقيقية أو يتجاهلها؛ وعلى كل فلا يمكن للرواية أن تكون تاريخاً تاماً، كما لا يمكن للتاريخ أن يصير رواية فنية، وإن كانا ينهلان من منبع واحد، ويهدفان إلى الإحاطة بعالم موجود متحقق، سواءً في الواقع أم الخيال، ولا يلغي ذلك الصلة التي تقربهما أو تباعد بينهما.[24]

والفوارق بين السرديتين التاريخية والروائية تمثل تحديّات للروائي عند إعادة صياغة التاريخ في قالب أدبي دونما إخلال بالحقائق الثابتة. لذلك؛ فإنه تقدر القيمة الفنية للرواية التاريخية عند تنوع أسلوب سردها، فالرواية التي تسير على نسق واحد توصف بالجمود الفني.

ومما سبق ذكره تبيّن أن الروائي التاريخي سيمتثل أمام محكمتين: المحكمة الأدبية، والمحكمة التاريخية؛ فهو مطالب بالفنية الأدبية، وفي نفس الوقت مطالب بالحفاظ على صحة السجلات التاريخية، ومن المبالغ أن تعامل الرواية معاملة التاريخ في الضبط والتحقيق، "فالأدب ليس خطاباً زائفاً، سواء كان ذلك محتملاً أو مؤكداً، بل هو على وجه الدقة خطاب لا يمكن أن يخضع لاختبار الصدق، فليس هو بصادق أو زائف، وإن من العبث طرح هذا الأمر، فاسمه يدل على مكانه فهو ابن الخيال".[25]

السرديّة الروائية في روايات جرجي زيدان:

تكمن متعة السردية في تنوع أساليبها ما بين وصف، وعرض، وحوار، أو باختلاف تقنياتها المستخدمة كتدخل الراوي بتعليق أو افتعال تداعيات، أو إرسال رسائل إلى المتلقي، وقد يسرع الروائي من حركة السردية أو يبطئها وذلك حسب رؤيته الروائية.

وقد جاء الوصف في سرديات جرجي زيدان عند حديثه عن (حسن) وهو يسترق النظر إلى سمية دون أن تشعر به، وقد جاء في طلبها وهو مشتاق إلى رؤيتها. يصف زيدان الموقف فيقول: "فلما وصل إلى بابه رآه مفتوحاً فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم، فأطل على باحة تحيط بها ثلاث غرف، وفي بعض جوانبها نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء أحمر زاه وليس على رأسها نقاب، وقد جلست أمام النخلة وأسندت ظهرها إليها ووجهها إلى جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل، ومع أنه أدرك أنها سمية فندم على دخوله بغتة واستنكف أن ينظر إليها أو يدخل بلا استئذان... ثم غلب عليه الحياء... فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقة من الحديد كانت معلقة في خوخته ولبث ينتظر من يدعوه إلى الدخول أو من يأتي لاستقباله"،[26] وقد استطاع زيدان بتقنية الوصف أن يصور المظهر الخارجي العام للبيئة التاريخية المتحدث عنها، فالباب المفتوح يدل على طبيعة العربي الكريم، والباحة والنخلة والغرف الثلاث تدل على الهندسة المعمارية للمدينة في فترة زمنية معينة، وشكل الباب يتوسطه خوخة معدنية تدلّ على اهتمامه بأدق تفاصيل التاريخ، وقد لا مس جرجي زيدان في وصفه للزمان والمكان كلاسيكية (والتر سكوت) في الرواية التاريخية؛ وذلك لأن تقنية سكوت في وصف الزمان والمكان للواقع التاريخي لم يكن تجريدياً، فهو يرى أن مصائر الشخصيات تتزامن تباعاً ضمن الإطار المحيط بالأزمة التاريخية، فمع تركيزه في وصف الإطار العام لبيئة الأزمة التاريخية، يصف سكوت الصراع بين الفئات المتضاربة الصغيرة في العلاقات الداخلية الموثوقة، كعلاقة الأب مع الأبناء، وعلاقة العاشق مع المعشوق، والعلاقات بين الأصدقاء.[27]

كما وظف جرجي زيدان أسلوب عرض المشهد في سرديته من ذلك مشهد غضب أبو الحسن لما علم أن الخليفة العاضد لم يوافق على تعيينه ولياً للعهد ولم يقبل بزواج أخته به؛ "ما كاد أبو الحسن يخلو بنفسه حتى رفس الأرض برجله من الغضب، وقد أخذ الحنق منه مأخذاً عظيماً وتمشى في الغرفة، ويداه متعانقتان وراء ظهره وهو يعمل فكرته، ويتشاغل حيناً بالنحنحة أو السعال أو بحك ذقنه أو يصلح عمامته"،[28] وتلك هي دأب من يدبر الحيلة فتسقط من يده، وشخصية أبو الحسن شخصية ماكرة جشعة تسعى إلى السلطة، فلما علم برفض العاضد لمطالبه استعرض زيدان مشهد أبي الحسن وهو يفكر في حيلة أخرى وقد علاه الغضب، واستطاع زيدان أن يترجم غضب أبي الحسن بعرض مشهد ردود أفعاله.

وغالباً ما يلجأ الروائيون إلى أسلوب الحوار لعرض الأحداث، فالحوار يتسم بالتشويق والإثارة أكثر من الوصف أو التصوير المشهدي، كما أنه يتيح للراوي قول ما يريد دون أن تقع عليه لائمة، تبين ذلك عند جرجي زيدان في حوار أشعب مع حسن، حينما رآه حسن في دار الأضياف جالساً على بيضة يصدر منه صوتاً كصوت الدجاج، والناس من حوله يضحكون، فسأل حسن أحد الحاضرين عن ذلك فقال له الرجل "ألا تعرف من هذا ؟، قال: لا، ومن هو؟، قال: أشعب الطماع الذي اتخذته سكينة بنت الحسين مضحكاً لها، قال حسن: أسمع اسمه وأعرف بعض أخباره المضحكة، ولكن منظره أضحك من أخباره. ما الذي أقعده هذا المقعد وهو يقوقيء كأنه

يحضن بيضاً ؟، قال الرجل: بل هو يحضن بيضاً حقيقة عقاباً له على ذنب ارتكبه بين يدي سكينة مولاته، فأمرته أن يقعد على هذا البيض حتى يفقس وقد مضى عليه أيام وهو على هذه الحال!"،[29] والحق: إن خبر أشعب ليس له علاقة بالرؤية السردية لرواية الحجاج بن يوسف التي تتناول فترة النزاعات. وما نميل إليه أن جرجي زيدان تعمّد الزجّ بالطرفة التاريخية للخروج من جمود التاريخ إلى الترويح عن المتلقي من قبيل التنويع مما دلّ على عبقرية أدبية لدى زيدان.

ومن التقنيات الفنية في السرد (التداعيات) وهي طريقة يلجأ إليها الروائي للإفصاح عما يدور في ذهن الشخصيات من تناقضات، وتساؤلات، وحوارات نفسية، أو ما يطلق عليها بالحوار الداخلي (المونولوج) "وهو شكل أدبي من خلاله نسمع أصوات الشخصية، وأفكارها الأكثر حميمية والأكثر قرباً من لا وعيها، ويبدو أنه سابق على كل تنظيم منطقي، وتعطي الانطباع بأننا أمام فكر في جريانه التلقائي، في ميلاده الأول الذي لم يخضع بعد لمراقبة الوعي وتنظيمات المنطق وتقييدات النظام اللغوي".[30] ومن صورها عند جرجي زيدان كشفه عن أحاسيس حسن وشوقه إلى لقاء سمية والسبب الذي من أجله كابد عناء السفر إلى المدينة "ولما خلا حسن إلى نفسه، عاوده ما كان يتقد في قلبه من الوجد، وكان يحب فتاة عرفها منذ أعوام وأنقذها وأباها من الموت في العراق في أثناء القتال ضد المختار بن عبيد، وقد تعاهدا على الزواج، وهو يعلم أنها تقيم بالمدينة".[31]

ويلاحظ على روايات جرجي زيدان كثرة التعليقات، أو التدخلات المباشرة على السرد، إما باستشهادات، أو اقتباسات، أو آراء، أو تفسير، لتوضيح الرؤية السردية لدى المتلقي مما لا يوهم عكس المراد منه، وكان من الأجمل من الناحية الفنية ترك مساحة للمتلقي في اكتشاف المراد، من شواهده اعتذار جرجي زيدان لأبي الحسن غضبه ونقمته على الخليفة العاضد لرفضه تزويجه أخته وإعطائه ولاية العهد، وكان أبو الحسن يأمل من تلك المطالب الوصول إلى السلطة، فلما أحس أبو الحسن أن أحلامه قد تبددت أخذ يفكر في حيلة أخرى، ويتعلق بآمال واهية في سبيل تحقيق أهدافه، فيقول جرجي زيدان معلقاً على ذلك "والإنسان إذا تولاّه اليأس في أمرٍ صدق كل قول، يعيد إليه الأمل ولو كان ذلك القول من المستحيلات".[32]

وقلّما اعتمد زيدان على تقنية الرسائل في سرديته، وما ظهر منها في رواياته لا تعد ظاهرة تعوّل عليها في التحليل بوصفه أسلوباً مقنّناً، ومما جاء من هذا الأسلوب عند جرجي زيدان كتاب الخليفة العباسي المستعصم بالله إلى أمراء ووزراء مصر يأمرهم بخلع شجرة الدر عن حكم مصر، وإسناده إلى رجل بدلاً عنها، وهذا نصه: "من أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى أمراء الجند والوزراء في مصر. السلام عليكم. وبعد فقد بلغنا أنكم وليتم أمركم شجرة الدر جارية المرحوم الملك الصالح وقلدتموها أمور الدولة وجعلتموها سلطانة عليكم، فإذا لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطة فأخبرونا نرسل إليكم من يصلح لها. أما سمعتم في الحديث عن رسول الله ﷺ لا أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة؟".[33]

تلك أبرز الأساليب السردية في روايات جرجي زيدان، وقد تبين فيما سبق ذكره تنوع أساليبه السردية بما ينقل المتلقي من جمود النسق التاريخي إلى متعة الرواية.

أما عن حركة السردية فقد تتسارع الأحداث تارة أو تتباطأ حيناً، وهي تقنية فنية يلجأ إليها الروائي بحسب ما تقتضيه رؤيته السردية، ففي رواية الشخصية مثلاً يكون الزمن عديم الأهمية بسبب أنه لا يتبع إلاّ ضرورة واحدة هي ازدياد أعمار الشخصيات ازدياداً حسابياً، أما الزمن في الرواية الدرامية فهو زمن داخلي حركته هي حركة الشخصيات والأحداث.

وقد ظهرت تقنية التسارع والتباطؤ بصور متعددة في روايات جرجي زيدان، فمن حيث تسارع الأحداث لخص زيدان أحداث فترة زمنية محددة بقوله "كان دخول مصر في حوزة الفاطميين أو العبيديين سنة 358هـ على يد القائد جوهر"،[34] ولا سيما أن الفترة الزمنية (358هـ) لا تخلو من أحداث دراماتيكية أدت إلى سقوط مصر في يد الفاطميين وخروجها من حكم العباسيين، وهو تسارع تقتضيه الرؤية السردية للرواية، حيث تبدأ أحداثها مع نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية.

كما تسارعت الحركة السردية عند زيدان بحذفه لبعض الأحداث التاريخية في قوله: "وقد توالى على مصر من الفاطميين أحد عشر خليفة، حكموا مائتي عام ونيفاً، من سنة 358 حتى 567هـ أولهم المعز لدين الله، وآخرهم العاضد لدين الله"،[35] والفترة الزمنية التي حكمها الفاطميون من عام 358هـ إلى 567هـ ما يقارب قرنين من الزمان، فحذف زيدان من أخبارها وأبقى على خبر العاضد وذلك لعلاقته برؤيته السردية.

كما أسرع زيدان من الحركة السردية بعرض مجمل للأحداث مع وجود إشارات دلت على فترة زمنية متروكة، من ذلك ما جاء في خبر معز الدين بعد بنائه مدينة القاهرة ودعا الناس إلى لقائه، كان الناس منقسمين إلى فئتين، فئة تؤيده، وفئة لا ترى الخلافة إلاّ في قريش، ولما استقر الحكم لمعز الدين في القصر جمع الناس في مجلس عام ونثر عليهم ذهباً، فأذعنوا له بالسمع والطاعة،[36] وبناء مدينة بكاملها تستوجب فترة زمنية طويلة، على الرغم من ذلك استطاع جرجي زيدان الانتقال بتقنية التسارع من لحظة بناء القاهرة إلى مجلس قصره فيها.

ومن صور إبطاء السرد عند جرجي زيدان ما جاء في رواية شجرة الدر عند وصفه لجزيرة الروضة بأنها "تطل على مجرى النيل إلى مسافة بعيدة، وجزيرة الروضة من أجمل جزر النيل بين مصر القديمة والجيزة التي طالما اتخذها الملوك متنزها...، وأنشأ في الروضة هذه قلعة فخمة عرفت بقلعة المقياس...، وكان في موضع القلعة أبنية كثيرة فيها القصور، والمساجد، والمعابد، ودور الصناعة لبناء السفن، والهودج الذي بناه الآمر بأحكام الله الفاطمي لجاريته.."،[37] وقد استرسل زيدان في وصف الجزيرة بما يقرب من صفحة كاملة، وفي إبطائه للحركة السردية بالحديث عن الجزيرة دلالة على أهميتها، فرواية شجرة الدر مبنية على فاعلية المكان.

كما أبطأ زيدان السرد في الحوار الذي دار بين شجرة الدر وجاريتها "... وقد وهبك الله كل ما تتمناه الغانيات من جمال الخلقة والذكاء، ورخامة الصوت، ولطف العشرة، وأنت في مقتبل العمر، وأنا في حدود الكهولة وقد أناخ عليّ الدهر بأثقاله ومشاكله"،[38] وقد ساعد هذا التباطؤ في بيان عمر شجرة الدر، مقارنة بجاريتها الجميلة الفاتنة التي تتمتع بصفات حسنة، كما كشف التباطؤ عن عظم هموم شجرة الدر حتى أن جاريتها الذكية لم تستطع أن تنفس عنها بعض ما تجد.

الخاتمة

الرواية التاريخية فن أدبي قائم على عنصرين أساسيين المادة التاريخية، والخيال الأدبي، ومتى ما اختل عنصر خرجت الرواية من دائرة الأدب التاريخي، ويعدّ جرجي زيدان أول من كتب في الرواية التاريخية العربية بصورتها الفنية عام 1891م، في حين تضاربت الآراء في القيمة الفنية لروايات زيدان التاريخية.

ومن خلال تحليل عناصر السردية في الروايات التاريخية لجرجي زيدان، توصل البحث إلى مجموعة من النتائج:

يرى بعض النقاد أن روايات جرجي زيدان التاريخية تفتقر إلى القيمة الأدبية لتقيدها بالمعطيات التاريخية، بينما توصل البحث إلى أن روايات زيدان التاريخية كانت أمينة على التاريخ، فزيدان لم يكن يعبث بالمعطيات التاريخية بل كان يمررها كما جاءت، ثم يفسح المجال لشخصيته الروائية في وصف الأحدث وتفسير الانفعالات بتنويع أسلوب السردية.

وقد اتسم المكان في روايات زيدان التاريخية بالواقعية، فبأسلوب الوصف وإبطاء حركة السردية عند استعراضه للأماكن التاريخية استطاع زيدان أن يبعث في المعالم القديمة روح العصر المتحدث عنه، بل لا يكاد زيدان ينطلق من حدث إلى آخر حتى يصف معالمه الجغرافية.

كما استطاع جرجي زيدان من خلال أسلوب الوصف أن ينتقل بين الباحة والأروقة في الأماكن التاريخية، ويكشف عن مشاعر الشخصيات بتصوير فني يقود المتلقي إلا فهم رؤيته السردية.

ويؤخذ على الروايات التاريخية لجرجي زيدان؛ سطوة أسلوب الراوي الداخلي على السردية، إما بتفسير، أو تعليق، أو شرح، مما أضعف من مرونة الرواية وحدّ من تفاعل المتلقي في اكتشاف النتائج.

---

[1] انظر: برومو، عبد الرحمن، **الرواية التاريخية في الأدب السوري المعاصر**، ط1، (دمشق: سوريا، دار الشجرة، 1996م)، ص12.

[2] وهبة، مجدي، والمهندس، كامل، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، ط2، (بيروت: لبنان، مكتبة لبنان، 1984م)، ص184.

[3] انظر: فتحي، إبراهيم، **معجم المصطلحات الأدبية**، د.ط، (المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، 1986م)، ص 177.

[4] شوقي، أبو خليل، **جرجي زيدان في الميزان**، ص23.

[5] السير والتر سكوت (Sir Walter Scott) شاعر وروائي بريطاني، تعلم في جامعة أدنبره، ودرس في اسكتلندا، وبدأ حياته الأدبية بجمع الأشعار الشعبية في بلدته، له كتاب بعنوان *الشعر الغنائي في اسكتلندا*، وكانت أولى قصصه التاريخية هي *وافرلي* عام 1814م، ثم تلتها سلسلة من القصص التاريخية

الأخرى، وقد ترجمت روايته *الطلسم أو التعويذة* إلى العربية. انظر: هيلات، عبد الله خليل، **الموسوعة الأدبية العالمية**، د.ط، (دار الكتاب الثقافي، د.ت)، ص219. وانظر: لوكاش، جورج، **الرواية التاريخية**، د.ط، ترجمة: صالح جواد الكاظم، (العراق: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986م)، ص28.

[6] بالنور، سليمة، "الرواية التاريخية بين التأسيس والصيرورة"، **مجلة عود الند**، العدد (93)، 2014م، مجلة إلكترونية ثقافية، www.oudnad.net .

[7] انظر: حسن، محمد عبد الغني، **جرجي زيدان**، د.ط، (القاهرة: مصر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م)، ص99.

[8] زيدان، جورجي، **الحجاج بن يوسف**، د.ط، (القاهرة: مصر، دار الهلال، 1989م)، ص6.

[9] انظر: زيدان، جورجي، **الحجاج بن يوسف**، ص98.

[10] انظر: زيدان، جورجي، **الحجاج بن يوسف**، المرجع نفسه.

[11] الصاوي، محمود، **كتابات جورجي زيدان دراسة تحليلية في ضوء الإسلام**، ط1، (دار الهداية، 2000م)، ص417.

[12] الصاوي، محمود، **كتابات جورجي زيدان دراسة تحليلية في ضوء الإسلام**، ص417.

[13] الصاوي، محمود، **كتابات جورجي زيدان دراسة تحليلية في ضوء الإسلام**، ص416.

[14] انظر: غزول، فريال جبوري، "الرواية والتاريخ"، **مجلة فصول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد (2)، العدد (2)، 1982م)، ص293.

[15] انظر: غزول، فريال جبوري، "الرواية والتاريخ"، **مقال سابق**، المجلد (2)، العدد (2)، 1982م)، ص295.

[16] غزول، فريال جبوري، "الرواية والتاريخ"، **مقال سابق**، المجلد (2)، العدد (2)، 1982م)، المرجع نفسه.

[17] انظر: السيد، شفيع، **اتجاهات الرواية العربية في مصر منذ الحرب العالمية الثانية إلى سنة 1967 دراسة نقدية**، ص31.

[18] ريكور، بول، **الزمان والسرد الحبكة والسرد التاريخي**، ط1، (دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006م) ترجمة: سعيد الغانمي، وفلاح رحيم، ج1، ص279.

[19] انظر: غزول، فريال جبوري، "الرواية والتاريخ"، **مقال سابق**، المجلد (2)، العدد (2)، 1982م)، ص296.

[20] انظر: مصطفى، المويفن، **تشكل المكونات الروائية**، ط1، (اللاذقية: سوريا، دار الحوار، 2001م)، ص49.

[21] القاضي، محمد، "الرواية والتاريخ: طريقتان في كتابة التاريخ روائيًا"، **مجلة فصول**، الجزء (2)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م، ص42.

[22] القاضي، محمد، "الرواية والتاريخ: طريقتان في كتابة التاريخ روائيًا"، **مقال سابق**، الجزء (2)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م، المرجع نفسه.

[23] القاضي، محمد، "الرواية والتاريخ: طريقتان في كتابة التاريخ روائيًا"، **مقال سابق**، الجزء (2)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م، ص46.

[24] مصطفى، المويفن، **تشكل المكونات الروائية**، ص40.

[25] مصطفى، المويفن، **تشكل المكونات الروائية**، ص100.

[26] زيدان، جرجي، **الحجاج بن يوسف**، ص22.

[27] لوكاش، جورج، **الرواية التاريخية**، ص44.

[28] زيدان، جرجي، **صلاح الدين الأيوبي**، ط2، (بيروت: دار الجيل)، ص50.

[29] زيدان، جرجي، **الحجاج بن يوسف**، ص35.

[30] المودن، حسن، **الرواية والتحليل النصي قراءات من منظور التحليل النفسي**، ط1، (بيروت: لبنان، مطابع الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009م)، ص153.

[31] زيدان، جرجي، **الحجاج بن يوسف**، ص20.

[32] زيدان، جرجي، **صلاح الدين الأيوبي**، ص47.

[33] زيدان، جرجي، **شجرة الدر**، د.ط، (دار الهلال، د.ت)، ص84.

[34] زيدان، جرجي، **صلاح الدين الأيوبي**، ص5.

[35] زيدان، جرجي، **صلاح الدين الأيوبي**، ص7.

[36] زيدان، جرجي، **صلاح الدين الأيوبي**، ص6.

[37] زيدان، جرجي، **شجرة الدر**، ص8.

[38] زيدان، جرجي، **شجرة الدر**، ص7.

المراجع:

أبو خليل، شوقي، (1982م). **جرجي زيدان في الميزان**. دمشق: دار الفكر، ط4.

أبو ساري، نواف. (2003م). **الرواية التاريخية مولدها وأثرها في الوعي القومي العربي العام رواد وروايات دراسة تحليلية تطبيقية نقدية**. قسنطينة: دار بهاء للنشر والتوزيع.

إسماعيل، حسن سالم هندي. (2014م). **الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث دراسات في البنية السردية**. عمان: دار حامد للنشر والتوزيع، ط1.

برومو، عبد الرحمن. (1996م). **الرواية التاريخية في الأدب السوري المعاصر**. دمشق: دار الشجرة، ط1.

حسن، محمد عبد الغني. (1970م). **جرجي زيدان**. مصر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

الحميداني، حميد. (2000م). **بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،ط1.

ريكور، بول. (2006م). **الزمان والسرد والحبكة والسرد التاريخي**. ترجمة: سعيد الغانمي، وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1.

زيتوني، لطيف. (2002م). **معجم مصطلحات نقد الرواية**. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، ط1.

زيدان، جرجي. (2012م). **الحجاج بن يوسف**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

زيدان، جرجي. (2012م). **شجرة الدر**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

زيدان، جرجي. (د.ت). **صلاح الدين الأيوبي**. بيروت: دار الجيل، ط2.

السعافين، إبراهيم. (1987م). **تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام 1870م–1967م**. بيروت: دار المناهل، ط2.

الشمالي، نضال. (2006م). **الرواية والتاريخ بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربي**. الأردن: عالم الكتب الحديث، ط1.

الصاوي، محمود. (2000م). **كتابات جورجي زيدان دراسة تحليلية في ضوء الإسلام**. دار الهداية، ط1.

العشماوي، عبد الرحمن. (1993م). **وقفة مع جورجي زيدان**. الرياض: مكتبة العبيكان، ط1.

فريال جبوري غزول. **الرواية والتاريخ**. (مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد 2، العدد 2، 1982م).

لوكاش، جورج. (1986م). **الرواية التاريخية**. ترجمة: صالح جواد الكاظم، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة.

ليندا هتشيون. **رواية الرواية التأريخية تسلية الماضي**. (مجلة فصول، العدد2، مصر، 1993م).

محمد القاضي. **الرواية والتاريخ: طريقتان في كتابة التاريخ روائيًا**. (مجلة فصول، الجزء 2، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م).

مرتاض، عبد الملك. (1998م). **في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد**. العدد240، الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

المودن، حسن. (2009م). **الرواية والتحليل النصي قراءات من منظور التحليل النفسي**. بيروت: مطابع الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1.

يقطين، سعيد. (1989م). **تحليل الخطاب الروائي الزمن، السرد، التّبئير**. بيروت: مركز الثقافي العربي، ط1.